مذكرة في العقيدة

إعداد

فضيلة الشيخ

صالح بن سعد السحيمي

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة والمدرس بالمسجد النبوي

مكتبة دار المستقبل
مصر

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

مُذَكِّرَةٌ فِي
العَقِيدَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة
للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١١/٤٨٢

الدار الأثرية
للنشر والتوزيع

مدينة نصر - القاهرة - جمهورية مصر العربية
جوال: 0020183620864
Email: dar-elatharia@yahoo.fr
dar_elatharia1@hotnmail.com

مكتبة
دار المستقبل
مصر

٥٠ شارع منشية التحرير - من شارع جسر السويس - عين شمس الشرقية - القاهرة
هاتف: ٠١١٨٣٢٨٣٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الْحَمد لله، نَحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أجْمَعين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الْحَديث كتاب الله وخير الهدىٰ هدىٰ مُحمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فهذه مذكرة مُختصرة في مادة العقيدة لطلاب الدورات التدريبية التي تقيمها الجامعة الإسلامية بالمدينة الْمُنورة في عدد من البلدان الإسلامية، أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها ويَجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وإليك أخي الدارس الكريم: الْمَوضوعات الْمُختارة لِهَذه المادة.

الأول: الحكمة من خلق الجن والإنس

اعلم أخي الدارس الكريم أن الله -تبارك وتعالى- خلق كل شيء لِحكمة يعلمها ويريدها، والمسلم مطالب بالإذعان والتسليم سواء أدرك تلك الحكمة أم لَم يدركها.

فإن عرف الحكمة فهو خير علىٰ خير، وإن لَم يدركها فعليه أن يستسلم؛ لأن العقل البشري قاصر عن إدراك كل حكمة، والصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- كانوا يتقبلون امتثال الأوامر واجتناب النواهي التِي تأتي في القرآن والسنة دون أن يسألوا عن الحكمة من ذلك، ولا أدل علىٰ هذا من قول عمر بن الخطاب ﷺ حينما جاء يُقبِّل الحجر الأسود فقال ﷺ: «إنِّي أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[1].

وقد خلق الله -تبارك وتعالى- الجن والإنس لِحكمة عظيمة، ألا وهي عبادته ﷻ دون سواه، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ومعنىٰ ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليوحدون، وقال -تبارك وتعالى- أيضًا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢/ ١٨٠)، مسلم (٣/ ٦٧).

والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة وهي أكثر من أن تُحصر في مثل هذا المقام، وقد دلت الآيتان علىٰ وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن لَم يُفرد ربه بالعبادة فهو مشرك كافر وإن عمل ما عمل من الأعمال فهي مردودة عليه لعدم تَحقق شرط التوحيد.

كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وقول النبي ﷺ: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد (٤٦ج٤، ص٢٢٨٩).

الثاني: شروط قبول العمل

من المعلوم أن العبادات توقيفية، بمعنىٰ: أنها لا تعرف إلا عن طريق الشرع، فليس لأحد أن يعبد الله -تبارك وتعالى- إلا بما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، كما أنه لابد في العبادة من إخلاص العمل لله وحده.

ومن هنا يتبين لنا أنه لابد لصحة أي عمل نريد أن نتقرب به إلى الله من شرطين أساسيين، وهذان الشرطان لابد من وجودهما مُجتمعين ولا ينفك أحدهُما عن الآخر وهُما:

الأول: إخلاص العبادة لله وحده.

والثاني: تَجريد المتابعة لرسول الله ﷺ.

وقد جمعت بين هذين الشرطين الآية الكريْمة في آخر سورة الكهف قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

فقد أمر سبحانه أن يكون العمل صالِحًا -أي: موافقًا للسنة-، ثم أمر أن يُخلصه صاحبه لله، لا يبتغي به سواه.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصًا لله، صوابًا علىٰ شريعة رسول الله ﷺ».

وروي مثل هذا عن القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره[1].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٨).

ومعنى الشرط الأول -أعني: الإخلاص-: هو أن يكون العامل قد قصد بعمله وجه الله ﷻ بعيدًا عن الرياء والسمعة لا يبتغي بذلك من أحد جزاءً ولا شكورًا، والنصوص الواردة في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القصص:٧٧].

ومن السنة: قوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١).

وإذن فالإخلاص لا يتأتى مع الشرك أو الرياء أو إرادة الإنسان بعمله الدنيا كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(٢).

وأما الشرط الثاني، فمعناه: أن يكون العمل الذي نتقرب به إلى الله موافقًا لِما شرعه الله في كتابه أو بينه رسوله ﷺ في سنته؛ لأن ديننا الإسلامي قد أكمله الله تعالى قبل أن ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فليس هو بحاجة إلى من يزيد وينقص فيه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣].

وقد جاءت نصوص كثيرة تأمر بالاتباع وتُحذر من الابتداع والإحداث في الدين:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد (٤٦ج٤، ص٢٢٨٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (ج١، ص٩)، ومسلم (٣/ ١٥١٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ومن السنة أحاديث كثيرة، منها:

قول رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور فإن كل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»(١).

وقال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»(٢).

وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٣).

وقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم»(٤).

فقد دلت هذه النصوص وما جاء في معناها على وجوب تَجريد المتابعة لرسول الله ﷺ وأنه لا قبول لعمل بدون ذلك مهما كان ذلك العمل.

وقد أحدث كثير من المسلمين أمورًا ظنوها من الدين وهي ليست من الدين في شيء، إنما هي بدع استحسنوها وظنوا أنها تقربهم إلى الله تاركين هذه النصوص وراء ظهورهم، وكأنهم لَم يسمعوا بِهَا.

ومن أمثلة ذلك: ما أحدثوه من أدعية وأذكار وابتهالات يتغنون بها بعد كل

---

(١) أخرجه الترمذي (ج٤، ص١٤٩)، وسنن ابن ماجه (١/ ٦).

(٢) الموطأ (٢/ ٨٩٩)، أبو داود (١/ ٤٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٥).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري(٣/ ٢٤١)، صحيح مسلم (٥/ ١٣٢).

(٤) أخرجه مسلم (إمارة ٤٦ج٣/ ١٤٧٢.

صلاة وفي أوقات معينة، وقد تركوا تلك الأذكار التي بيَّنها رسول الله ﷺ بعد كل صلاة، بل إنه علَّم أمته أذكارًا لِجميع الأوقات، فعلَّم المسلم ما يقوله عند خروجه من بيته وعند رجوعه إليه، وما يقوله عند النوم، وما يقوله عند الاستيقاظ من النوم، وقال ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1].

وقال الله تعالى مبينًا عمل أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]. فبينت الآية أن هؤلاء يذكرون الله في جميع أحوالِهم.

ومن ذلك: إحداث أعياد معينة في أوقات مَخصوصة غير الأعياد المعروفة في الإسلام والتِي هي عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ، وعيد الأسبوع -وهو يوم الجمعة-، وما عدا ذلك من الأعياد فهي أعياد جاهلية، وما أحُدِث فيها من العبادات فهي مردودة لكونها عبادات بدعية.

وغير ذلك من الأعمال التِي أُحدثت في الدين فينبغي للمسلمين أن يتركوها، وأن يقتصروا علىٰ ما ثبت في الكتاب والسنة، ولنا في أصحاب رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ حينما سمع أن جماعة يَجتمعون بعد صلاة المغرب من كل يوم ويرددون التكبير والتهليل والتسبيح بصوت جماعي جاء وأنكر عليهم وقال: والله لقد جئتم ببدعة ظلمًا وفَضَلْتم أصحاب نبيكم ﷺ علمًا[2] فإن الذي أنكره عبد الله بن مسعود ﷺ هنا ليس مُجرد التهليل والتسبيح لأن الذكر مشروع وإنَّما أنكر عليهم الهيئة التي كانوا يذكرون بِهَا؛ لأنها ليست معروفة عند أصحاب رسول الله ﷺ الذين رووا عنه وتلقوا عنه وسمعوا منه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات (٣ج١١ ص١٠١) . صحيح البخاري مع الفتح.

(٢) أخرجه الدارمي، وأبو نعيم. انظر: البدعة وأثرها السيئ في الأمة لسليم الهلالي.

الثالث: التوحيد وأقسامه

التوحيد لغة معناه: الإفراد، وشرعًا: إفراد الله تعالى بالعبادة.

وينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية والعبادة.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

* * *

١ـ توحيد الربوبية

وهو: توحيد الله بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والملك والتدبير، بِمعنىٰ: الإيْمَان بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق المالك المتصرف والمدبر لكل شيء لا راد لقضائه ولا معقب لِحكمه.

ومن أدلة توحيد الربوبية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذا النوع من التوحيد قد أقر به المشركون الأولون، ولكن هذا الإقرار لَم يدُخلهم في الإسلام لعدم إقرارهم بلازمه وهو توحيد الألوهية.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

والأدلة علىٰ ربوبية الخالق ﷻ كثيرة لا تُعد ولا تُحصىٰ عقلية كانت أو نقلية، فالْمَخلوق دليل علىٰ وجود الخالق، والمصنوع دليل علىٰ وجود الصانع، والمصنوع لا يُوجِد نفسه بل لابد من مُوجِد وهو الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢].

إلى غير ذلك من النصوص الَّتِي تدل علىٰ كمال قدرته -تبارك وتعالى-.

وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــىٰ أنـــه واحـــد

* * *

٢ـ توحيد الألوهية والعبادة

وهو: توحيد الله بأفعال العباد التِي خلقهم لَها وأوجدهم من أجلها كالصلاة والصوم والذبح والنذر والاستغاثة وغير ذلك من أنواع العبادة، بِمعنىٰ: صرف جميع أنوا ع العبادة لله وحده لا شريك له، فلا يُدعَىٰ من دونه أحد من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فمن صرف شيئًا منها لغير الله فهو مشرك كافر كما قال - تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وهذا النوع من التوحيد -أعني توحيد: الألوهية- هو الذي حصلت فيه الخصومة بين الرسل وأمَمهم؛ لأن أكثر المشركين الأولين كانوا يعترفون بأنه لا خالق ولا مدبر إلا الله، ولكنهم يشركون معه في العبادة غيره زعمًا منهم أن هؤلاء الشركاء يكونون شفعاء لهم عند الله كما حكىٰ الله ذلك عنهم بقوله:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

ولذلك بعث الله الرسل جميعًا بالدعوة إلى توحيد الله الخالص كمالِ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وإذا نظرنا إلى الفرق بين مشركي هذا الزمان ومشركي الزمان الأول وجدنا أن مشركي هذا الزمان أشد كفرًا من المشركين الأولين؛ ذلك لأن المشركين الأولين كانوا يشركون بالله في الرخاء ولكنهم يلجئون إليه ويؤمنون به في وقت الضيق والشدة الكرب، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

أما المشركون في هذا الزمان فإنهم يلجئون إلى غير الله ويدعونه في الرخاء والشدة على حدٍّ سواء.

فأنت تَجد الواحد منهم يتوجه إلى الصنم أو إلى صاحب القبر يسأله كشف الكربات وإزالة الملمات، ويستغيث به، ويطلب منه العون والمدد فضلاً عما يُقدِّم له من الذبح والنذور كما هو الحال عند القبوريين الذين لا هَمَّ لَهم إلا العكوف عند المقابر، يطوفون بِهَا، ويرجون من أهلها قضاء حوائجهم؛ لذا يقول قائلهم: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور!!

والله ﷻ يقول: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وهؤلاء الموتىٰ في قبورهم لا يَملكون لأنفسهم شيئًا فضلاً عن أن يَملكوا لغيرهم، كما يقال: «فاقد الشيء لا يعطيه». فإذا كان لا يَملك نفعًا لنفسه فمن باب أولى وأحرىٰ ألاَّ يَملك ذلك لغيره، بل لا يَملك النفع و الضر إلا الله ﷻ .

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧].

* * *

٣ـ توحيد الأسماء والصفات

وهو: الإيْمَان بِما ورد في الكتاب والسنة من أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلا؛ إيْمَانًا بلا تَحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تَمثيل، علىٰ حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فالواجب على المسلم: أن يصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ دون زيادة أو نقصان وقد توعد الله -تبارك وتعالى- من ألحد في أسمائه وصفاته بأي صورة من صور الإلْحَاد فقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

ومن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فقد كفر، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

وأهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبت الله لنفسه من صفات الكمال وينفون عنه جميع صفات النقص ويعتمدون -فيما يثبتون أو ينفون- علىٰ الكتاب والسنة، فمثلاً: إذا قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

فإنهم يقولون: استوىٰ كما يليق بِجلاله وعظمته، ولايفسرون استوىٰ بِمعنىٰ: استولى؛ كما ذهب إلى ذلك المؤولة بل يثبتون هذه الصفة ويؤمنون بها علىٰ الوجه الذي يليق بالله -جل وعلا- لأن تفسير الاستواء بالاستيلاء والقهر؛ تَحريف للكلم عن مواضعه؛ وصرف للفظ عن ظاهره بلا دليل.

وكذلك في نَحو قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

فيثبتون لله يدًا تليق بِجلاله وعظمته، ولا يؤولون اليد بِمعنىٰ القدرة والنعمة كما ذهب إلى ذلك الجهمية والمعتزلة ومن سار في فلكهم من المؤولة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

فأهل السنة يقولون: يَجيء مَجيئًا يليق بِجلاله وعظمته كما يشاء، وكيف يشاء ولا يؤولون ذلك بأي شكل من أشكال التأويل، وهكذا نَجدهم يسيرون علىٰ هذا المنهج في سائر أسماء الله وصفاته التي جاءت في الكتاب والسنة، وكانوا بذلك وسطًا بين المعطلة الجهمية والمعتزلة، وبين المشبهة الذين يُمثلون الله بِخلقه.

وهؤلاء إنَّما وقعوا فيما وقعوا فيه من التأويل والتعطيل لأنهم لَم يفهموا من صفات الله ﷻ إلا ما يليق بالمخلوق فأرادوا أن يتخلصوا من ذلك فلجئوا إلى التأويل والتعطيل فرارًا من التشبيه علىٰ حد زعمهم، فكانوا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث إنهم وقعوا في شر مِما فروا منه.

فيجب على كل مسلم: أن يؤمن بأسماء الله وصفاته ويثبتها علىٰ الوجه اللائق بِجلال الله وعظمته.

وما أحسن جواب الإمام مالك -رحِمه الله تعالَىٰ- إمام دار الهجرة حينما سأله أحد المبتدعة عن كيفية الاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

فقال المبتدع: كيف استوىٰ؟ فقال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مَجهول، والإيْمَان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1]. ثم أمر بأن يُخرج المبتدع من مَجلسه.

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد علىٰ الجهمية (ص٣٣)، واللالكائي (ج١/ ٩٢)، ومُختصر العلو للذهبي (ص١٤١).

وما قاله الإمام مالك في الاستواء يَجري في سائر صفات الله ﷻ فهو قاعدة عظيمة ينبغي التنبه لَهَا، والسير عليها؛ حتىٰ نسلم بذلك من ضلال المعطلة وزيغ المشبهة.

* * *

سبب ضلال من ضل في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته

نشأ السلف الصالح من الصحابة والتابعين علىٰ الإيْمَان بأسماء الله وصفاته كما أسلفنا، حتىٰ ظهرت فرقة الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان مؤسس هذه الفرقة الضالة الذي أخذ فكرة نفي أسماء الله وصفاته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان الذي أخذها بدوره عن طالوت اليهودي ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي المعروف.

فصار منشأ فكرة التعطيل من اليهود إذ إن جهمًا ومن سبقه قد تتلمذوا علىٰ اليهود في ذلك، ثم انتشرت هذه الفكرة في القرن الثاني بزعامة واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد اللذين أسسا مذهب المعتزلة، والذي هو إثبات الأسماء وإنكار أو تأويل جميع الصفات.

ثم تفرعت عنهم فرق كثيرة وهم ما بين مقل ومكثر في التأويل والتعطيل إلى يومنا هذا، وقد بنوا ما ذهبوا إليه من التعطيل والتأويل علىٰ أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسمًا.

هذا منشأ ضلال عقولِهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بِخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولاً،

وعطلوا ثانيًا، وشبهوه ثالثًا بكل ناقص ومعدوم.

فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ إثباتًا بلا تَمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل.

فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى حذوه، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولَم يتناقضوا خلافًا لأولئك المعطلة الذين بنوا مذهبهم على هذا الأصل الفاسد المخالف للعقل والنقل.

* * *

الرابع: الشرك وأقسامه

عرفنا فيما سبق التوحيد وأقسامه فكان لابد من معرفة ضده وهو الشرك، وكما يقال: «وبضدها تتبين الأشياء». وسوف نتكلم عنه في النقاط الآتية:

١- تعريف الشرك وبيان أقسامه وحكم كل قسم.

٢- لِماذا ندرس هذا الباب؟

٣- سبب وقوع الشِرك في العالـم.

١- تعريف الشرك وأقسامه: الشرك هو مساواة غير الله بالله فيما هو حق لله بِمعنىٰ: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله وينقسم إلى قسمين:

١- شرك أكبر.

٢- شرك أصغر.

الشرك الأكبر: وهو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله. كمن يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو يدعو غير الله، أو يستغيث بغير الله: كمن يستغيث بالأصنام والأوثان، أو بالأولياء والصالِحين بِحجة أن ذلك يقربه إلَىٰ الله زلفىٰ، وحكم هذا النوع من الشرك أنه كفر مُخرج من الملة، ولا يقبل الله من صاحبه صرفًا ولا عدلاً، وصاحبه خالد مُخلد في النار إذا مات علىٰ ذلك.

كما قال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (ج٨/ ١٧٦).

فإن الشرك أعظم الذنوب على الإطلاق، ولن يغفر الله لِمن مات عليه أبدًا، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال تعالى مبينًا أن من أشرك لا يقبل عمله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

الشرك الأصغر: أما الشرك الأصغر فإنه من أكبر الكبائر وهو دون الشرك الأكبر وصاحبه لا يُخلد في النار، بل هو تَحت مشيئة الله تعالى كسائر الذنوب والمعاصي التِي دون الشرك الأكبر ومن أمثلته: الرياء وهو: أن يعمل الإنسان العمل من أجل مَحمدة الناس ومدحهم وثنائهم، وهو من أخطر الذنوب؛ لأنه عمل قلبِي لا يطلع عليه إلا الله، ويحبط الأعمال التِي يدخل فيها.

وقد حذر النبِي ﷺ منه فقال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». فسئل عنه، فقال: «**الرياء**». وهو يتنافىٰ مع الإخلاص الذي هو أحد شروط صحة العمل.

ومن أمثلة الشرك الأصغر: قول القائل: لولا الله وفلان؛ وما شاء الله وفلان، لأن الواو تفيد مطلق الجمع، فتحتمل التشريك وقد سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: ما شاء الله وشئت. فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله عدلاً، بل ما شاء الله وحده**».

ومن أمثلة الشرك الأصغر: الحلف بغير الله كمن يِحلف بالنبِي ﷺ أو الأمانة أو الحياة أو أي مَخلوق كان.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة.

فلنتنبه إلى الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر؛ لأنه أعظم الذنوب، ولنتحصن من ذلك بالتمسك بالكتاب والسنة، وبتحقيق التوحيد وتَخليصه من الشرك والشوائب والبدع التي دخلت في عقائد المسلمين من حيث لا يشعرون.

٢- لماذا ندرس هذا الباب:

الشرك أعظم ذنب عُصِيَ به الله ﷻ، وخطره عظيم، وهو أخفىٰ من دبيب النمل، ولذلك تتعين علىٰ كل مسلم معرفته حتىٰ يسلم منه، وليكون علىٰ بينة من أمره، ويتحصن من الوقوع فيه، وهناك أسباب كثيرة تَحملنا علىٰ دراسته، نلخصها فيما يلي:

أ- أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- الذي لا ينطق عن الهوىٰ أخبر بأن الشرك سيقع في هذه الأمة وأنه-سوف يوجد من يعبد الأوثان ويتبع سنن المشركين الأولين.

وقد جاءت في ذلك أحاديث كثيرة، نذكر منها قوله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى»[(١)].

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتِي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتِي الأوثان»[(٢)].

وقال ﷺ أيضًا: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[(٣)].

وأحاديث أخرىٰ كثيرة لا يُمكن حصرها في مثل هذا المقام وقد تَحقق ما أخبر

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري مع الفتح (٩/ ١٢٦)، صحيح مسلم مع شرح النووي (٨/ ٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (ج٤، ص٤٥٠).

(٣) متفق عليه:صحيح البخاري (٩/ ١٢٦)، صحيح مسلم (٨/ ٥٧).

به رسول الله ﷺ كما نشاهده في زماننا هذا من انْحِرَاف بعض المسلمين عن دينهم الحق وتعلقهم بأصحاب القبور والأضرحة، والعكوف عندهم، وتقديم القرابين لهم من دون الله.

ب- إن المسلم مطالب بأن يعرف الشر ليحذر منه ويبتعد عنه؛ لأنه إذا لَم يعرفه ربما يقع فيه وهو لا يشعر، يدل لذلك قول حذيفة رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول ﷺ الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مَخافة أن أقع فيه»[1].

ج- الحال والواقع الذي وصل إليه كثير من المسلمين اليوم فلا تكاد تَجد بلدًا من البلاد الإسلامية إلا وفيها مشاهد تُعظَّم، وقبور تُقَدَّس ويُنذر لها ويُذبح عندها ويُستغاث بأهلها، وتوقد عندها الشموع، وتُقام عندها الأعياد، ويسألون أهلها قضاء الحاجات وكشف الكربات وإزالة الملمات ويظنون أن ذلك يقربهم إلى الله زلفىٰ.

ولكل عاقل أن يتساءل هنا: ما الفرق بين من يستغيث بالأصنام والأوثان ويدعوها من دون الله ويقول: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ، وبين من يستغيث بِميت في قبره ويدعوه ويرجوه جلب الخير أو دفع الضر؟!

والجواب: أن كلاً منهما مَخلوق فلا يَجوز أن يُتعلق به من دون الله وهو لا يَملك لنفسه، فمن باب أولى وأحرىٰ ألاَّ يَملك لغيره كما يقال: «فاقد الشيء لا يعطيه». فلهذه الأسباب وغيرها لابد لنا من معرفة الشرك، وكشف حقائقه، وبيان خطورته.

٣- سبب وقوع الشرك في العالـم:

إن أول شرك وقع في الناس إنما وقع بسبب الغلو في الصالحين، وذلك حينما يعم الجهل ويقل العلم يتدخل الشيطان فيزين للناس التوسل بالصالِحين، وبالتالي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري كتاب الفتن (ج١٣/ ٣٥)، والمناقب (ج٦/ ٦١٥)، ومسلم في كتاب الإمارة (ج٣/ ١٤٧٥).

يأمرهم بعبادتهم، يدل لذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذه أسماء رجال صالِحين من قوم نوح عليه السلام لَمَّا ماتوا أوحىٰ الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مَجالسهم التِي كانوا يَجلسون أنصابًا، ولَم تعبد حتىٰ إذا طال بهم الأمد ونُسي العلم؛ عُبدت»[(١)].

ويفهم من هذا: أنهم حينما صوروا لهم التماثيل إنما فعلوا ذلك من أجل أن يقتدوا بهم ويتأسوا بأفعالِهم إذا شاهدوا تَماثيلهم، فلما تقادم العهد وذهب العلماء وانتشر الجهل ونسي العلم جاءهم الشيطان وزين لَهم عبادتها، وأوحىٰ إليهم أن من كان قبلكم كانوا لها عابدين، وهذه المسميات التي كانت في عهد نوح عليه السلام وجدت بعينها عند العرب في الجاهلية قبل مبعث الرسول مُحمد ﷺ.

وقد حذر الله -تبارك وتعالى- من الغلو فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء:١٧١].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه البخاري في التفسير (ج٨، ص٦٦٧).

(٢) أخرجه النسائي في المناسك (ج٥/ ٢١٨)، وابن ماجه، المناسك (ج٢/ ١٠٠٨)، وأحمد (١/ ٢١٥)، وقال البخاري: باب ما يكره من الغلو في الدين، الاعتصام (ج١٣/ ٢٧٥).

الخامس: العبادة وأنواعها

العبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، وشرعًا: هي اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وهي مبنية على أصلين: إخلاص العبادة لله وحده، وتَجريد المتابعة لرسول الله ﷺ.

فإذا لَم يتحقق ذلك فإن العبادة لا تصح كما بينا ذلك مفصلاً في الكلام على شروط قبول العمل.

وللعبادة أنواع كثيرة يَجب صرفها جميعًا لله ﷻ فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر، ولكثرة هذه الأنواع فإننا سوف نذكر بعضًا منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، من هذه الأنواع:

١- الدعاء: وهو سؤال الله ﷻ جلب خير أو دفع ضر، ويَجب أن يكون خالصًا لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[1]. فقد دلت هذه النصوص على أن الدعاء

---

(١) أخرجه أبو داود، باب الوتر (ج٢/ ١٦١)، والدعوات (١ج٥/ ٤٥٦)، وابن ماجه (ج٢/ ١٢٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧).

من أخص أنواع العبادة وأهمها، وقد حذر الله -تبارك وتعالى- من دعاء غير الله كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

هذه الآيات وما جاء في معناها تدل على خطورة دعاء غير الله ولا أدري كيف غفل بعض المسلمين عن مثل هذه الآيات لأننا نَجد كثيرًا منهم يدعون غير الله خصوصًا عند المشاهد ومن يسمونهم بالأولياء؛ ظنًّا منهم أنهم يسمعون دعاءهم.

هذا؛ ويزين لَهم الشيطان ذلك حتى يصم آذانهم عن سماع الحق، ولا أدري كيف تذهل عقولُهم إلى حد أن يعتقدوا أن ميتًا في قبره يَجلب لهم نفعًا ويدفع عنهم ضرًّا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:٧٦].

٢- الاستغاثة: وهي طلب كشف الكربات التي تنزل بالمرء، وهي نوع من الدعاء كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩].

وجاء في الحديث الصحيح أنه كان هناك منافق يؤذي المؤمنين وهو عبد الله بن أُبي ابن سلول. فقالوا: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي وإنَّما يُستغاث بالله»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد، ولفظ أحمد: «إنه لا يُقام لِي، إنما يُقام لله -تبارك وتعالَى-» انظر: المسند (ج٥/ ٣١٧)، ومَجمع الزوائد (ج١٠/ ١٥٩)، وطبقات ابن سعد (ج١/ ٣٨٧).

فقد دل الحديث على تَحريْم الاستغاثة بغير الله، فإن رسول الله ﷺ قادر على أن يَخلصهم من هذا المنافق ومع ذلك أنكر عليهم الاستغاثة سدًّا لذريعة باب الشرك؛ فدل ذلك على أن الاستغاثة لا تصح لا برسول الله ﷺ ولا بغيره من الخلق.

٣- النذر: وهو أن يُلزم المرء المكلف نفسه طاعة لله تعالَى لَم تكن واجبة عليه قبل أن يلزم نفسه بِهَا، وهو من الأعمال التي تقرب إلى الله إذا قصد بها وجه الله بشرط أن يكون طاعة خالصة لها نظائر في العبادات وأن تكون في مقدور الناذر وفي حدود طاقته، كأن يقول المرء: لله عليَّ أن أصوم عدد كذا من الأيام، أو أن أصلي عددًا من الركعات، أو غير ذلك من الطاعات، وقد امتدح الله تعالَى الذين يوفون بالنذر، فقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

وقال رسول الله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[(١)].

٤- الذبح والنحر: وهو من أنواع العبادة التِي ضل فيه الناس وصاروا يتقربون به لغير الله، كالذبح عند قبور الأولياء والصالِحين بدعوىٰ أن هذه الصدقة لا تصل إلى الله إلا عن طريق شيخ معين، وهذا هو الشرك الأكبر بعينه، وقد أمر الله تعالى بأن يُخلص له العمل في الذبح وغيره من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (ج٨/ ١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم، الأضاحي (ج٣/ ١٥٦٧)، والنسائي، الضحايا (ج٧/ ٢٠٥)، وأحمد (١/ ١٠٨، ١١٨).

بل إنه ﷺ نهىٰ عن الذبح حتىٰ في الأماكن التي يُعبد فيها غير الله أو التي تقام فيها أعياد الجاهلية، لِما روىٰ ثابت بن الضحاك رضي الله عنه أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً ببوانة -وهي جبل قرب المدينة- فقال له النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن يعبد؟ فقال: لا. قال: هل كان فيها عيد من أعياد الجاهلية؟ قال:لا. قال: فأوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يَملك ابن آدم»[1].

وهناك أنواع كثيرة من أنواع العبادة كالْمَحبة والخوف والرجاء والخضوع والخشوع والخشية والإنابة، وغير ذلك من كل ما يُتقرب به إلى الله ﷻ، فمن تقرب به لغير الله فقد أشرك بالله معه غيره، وما تقدم من الآيات التي تأمر بالإخلاص تُحتم وتُوجب علىٰ العبد أن يصرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له.

* * *

(١) أخرجه أبو داود، الأيْمَان والنذور (٣/ ٦٠٧).

السادس: ما جاء في الرقى والتمائم

الرقى -جمع رقية- وهي: العزائم التي يقرأ بها على المريض مع النفث بالريق ويَختلف حكمها بِحسب نوع الرقية، كما سنبينه.

أما التمائم فهي: جمع تَميمة، وهي خرزة أو حجاب يعلق على الصبيان وربما علقت على غيرهم خشية العين، وقد جاء النهي عن الرقى والتمائم في حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»[1].

وذلك أن عبد الله بن مسعود ﷺ رأى على زوجته زينب خيطًا فسألها عن ذلك، فقالت: إنه خيط، قد رُقِيَ لها فيه من أجل مرض في عينها، فقطعه عبد الله بن مسعود ﷺ وقال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، إنَّما ذلك الشيطان ينخسها حتى إذا رقى ذلك اليهودي سكنت، وإنما يكفيك أن تقولي: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا[2].

وحديث عبد الله بن مسعود ﷺ دل على أن هذه الأمور الثلاثة: الرقى والتمائم والتولة من الشرك، وفيه تفصيل، فإن الرقى الْمُحرمة الشركية هي التي تشتمل على أي نوع من الشرك كالاستعاذة بغير الله والاستعانة بغيره، وإذن فالرقية الجائزة هي التِي تَخلو من شوائب الشرك، فالنهي عن الرقى ليس على عمومه وإنَّما

(١) أخرجه أبو داود، في الطب (ج٤/ ٢١٢).

(٢) أخرجه أبو داود، في الطب (ج٤/ ١١٢)، وابن ماجه في الطب (٩٩).

هو مُخصص بالأدلة التِي تُجيز الرقية، والتي منها الحديث المتفق علىٰ صحته: «لا رقية إلا من عين أو حُمة»[١].

والعين هي الإصابة بِمرض نتيجة لنظرة من شخص لَم يذكر الله -تبارك وتعالى- حينما يعجبه أمر من الأمور ولَم يقل: ما شاء الله، وهي حق وتأثيرها ثابت بالنصوص الصحيحة منها: قوله ﷺ: «العين حق»[٢]. والحمة -بالحاء المهملة المضمومة والميم الـمحركة المفتوحة والتاء-: هي سم العقرب.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ عن الرقىٰ التي كانوا يفعلونها، فقال لهم: «اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لَم تكن شركًا»[٣].

وقد رقي النبي ﷺ ورُقي، وأقر علىٰ الرقية في أحاديث كثيرة وبناء عليه فإن الرقية تَجوز بشروط:

١- أن تكون بكتاب الله تعالى أو سنة رسوله أو بأسماء الله وصفاته أو الأدعية الْمَأثورة عن السلف.

٢- أن تكون باللسان العربي إلا إذا كان الراقي لا يُحسن العربية فيشترط أن يكون الدعاء المترجم موافقًا للكتاب والسنة.

٣- أن يعتقد عدم تأثير الرقية بنفسها، فإن الشفاء من الله وإنَّما هي سبب من الأسباب المشروعة للتداوي.

أما التميمة فإنها لا تَجوز بِحال، وتعليقها مُحرم، وربما تصل إلى درجة الشرك الأكبر، إذا اعتقد فيها جلب خير أو دفع شر، وقد صح عن رسول الله ﷺ من حديث

---

(١) أخرجه البخاري: في الطب (١٧/ ج١٠/ ١٥٥)، ومسلم: الإيمان (٣٧٤ ج١/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: في الطب (ج١٠/ ٢٠٣)، ومسلم (ج٤/ ١٧١٩).

(٣) مسلم (٦٤ج٤/ ١٧٢٧)، والترمذي: في الطب (ج٤/ ٢١٤).

عبد الله بن عكيم ﷺ أنه قال: «من تعلق شيئا وكل إليه»[١]. ومعنىٰ وكل إليه، أي: تركه الله إليه، وقال ﷺ: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»[٢].

وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»[٣].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ وفي يده حلقة من صفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذا؟ فقال الرجل: من الواهنة. فقال النبي ﷺ: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، وإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»[٤].

والصفر: نوع من المعادن الخفيفة، والواهنة: مرض يصيب في المفاصل، ومعنىٰ أنزعها أي: اخلعها، ومعنىٰ وهنًا: أي: تزيدك مرضًا علىٰ مرضك، وقد رأىٰ حذيفة رجلاً، قد ربط علىٰ يده خيطًا من الحمىٰ فقطعه حذيفة ﷺ ثم تلا قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

فقد تضافرت الأدلة علىٰ تَحريم تعليق التمائم كلها، سواء كتب فيها شيء من القرآن، أم لا، ومن رخص في تعليق التمائم إذا كانت من القرآن لا يُلتفت إلى قوله؛ لأنه لا يستند إلى دليل فليس كل خلاف جاء معتبرًا إلا خلاف له معنًىٰ من النظر، وإذن فتعليق الحجب التِي يكتبونها من القرآن ثم يعلقونها علىٰ المرضىٰ لا يَجوز بل هو مُحرم، ولا فرق بينه وبين التمائم الْمُحرمة وذلك للأسباب الآتية:

١- عموم النهي الوارد في تَحريم التمائم، ولَم يأت ما يَخصص هذا العموم، والقاعدة الأصولية تقول: إن العام يبقىٰ علىٰ عمومه حتىٰ يرد دليل التخصيص.

---

(١) الترمذي: في الطب (٢٤ج٤/ ٤٠٣)، وأحمد (ج٤/ ٣١٠).

(٢) أحمد (ج٤/ ٦٥٤).

(٣) رواه أحمد (ج٤/ ١٥٦)، والحاكم (ج٤/ ٢١٩).

(٤) ابن ماجه في الطب (ج٢/ ١١٦٧)، وأحمد (ج٤/ ٤٤٥).

٢- إن في تعليق التمائم من القرآن امتهانًا للقرآن وتلاعبًا به؛ لأن ذلك يعرضه للنجاسات والأماكن التِي يَجب أن ينزه عنها القرآن.

٣- سد الذريعة، فإنه لو رخص بتعليق التمائم من القرآن لأدىٰ ذلك إلى تعليق التمائم حتىٰ من غير القرآن وقد حصل ذلك.

٤- إن مثل هذا العمل لَم يثبت عن أحد من السلف، وما نسب إلى الصحابة في ذلك لَم يصح منه شيء، ولو كان ذلك مشروعًا لبينه رسول الله ﷺ ونقل إلينا نقلاً صحيحًا، إذ البيان لا يؤخر عن وقت الحاجة.

هذا، وقد وجد في زماننا هذا بعض المشعوذين والمرتزقة الذين يكتبون الحجب للناس في أوراق يستشفون بها ويعلقونها عليهم ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويفسدوا عليهم دينهم وعقيدتهم، فينبغي للمسلمين أن يَحذروا منهم وأن يَجتنبوا التداوي عندهم؛ لأنهم يتلاعبون بكتاب الله ويَخدعون بشعوذتهم ضعاف الإيمان.

* * *

السابع: التوسل

التوسل لغة: التقرب، والوسيلة: هي ما يتقرب به إلى المطلوب وهي الواسطة والسبب الذي يوصل إلى المراد.

جاء في النهاية لابن الأثير -رحِمه الله تعالَىٰ-: «الواسل: الراغب، والوسيلة: القربة والواسطة، وما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به وجمعها: وسائل»[(١)].

وجاء في القاموس: «وسل إلَىٰ الله تعالى توسيلاً، عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل»[(٢)].

معنى الوسيلة في القرآن: ما ذكرناه من المعنىٰ اللغوي هو المعنىٰ الذي فسر به السلف لفظ الوسيلة الواردة في القرآن، والذي لا يَخرج عن معنىٰ التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، وقد جاء ذكر الوسيلة في القرآن الكريم في آيتين في سورتَي المائدة، والإسراء، وهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة:٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء:٥٧].

---

(١) النهاية لابن الأثير (ج٥/ ١٨٥).

(٢) ترتيب القاموس المُحيط (ج٤/ ٦١٢) مادة «وَسَلَ».

فأما الآية الأولى: فقد قال إمام المفسرين الحافظ ابن جرير -رحمه الله تعالى- في تفسيرها: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه»[(١)].

ونقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن معنى الوسيلة فيها: القربة، ونقل مثل ذلك عن مُجاهد والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، ونقل عن قتادة قوله فيها: أي: تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه، ثم قال ابن كثير: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه.

«والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تَحصيل المقصود»[(٢)].

وأما الآية الثانية: فقد بيَّن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مناسبة نزولها التي توضح معناها فقال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتَمسك هؤلاء بدينهم»[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «أي: استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة»[(٤)].

وهذا هو المعتمد في تفسير الآية، كما نص على ذلك الإمام البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

والآية صريْحة في أن المراد بالوسيلة: ما يتقرب به إلى الله تعالى، ولذلك قال:

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (ج٦/ ١٤٦، ١٥/ ١٠٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (ج٢/ ٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (ج٨/ ٣٩٧).

(٤) فتح الباري (ج٨/ ٣٩٧).

﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون ما يتقربون به إلى الله تعالى من الأعمال الصالِحة.

وهذا التفسير الذي نقلناه عن السلف في معنىٰ الوسيلة في الآيتين هو الذي تدل عليه اللغة ويؤيده الفهم السليم.

أما من استدل بهاتين الآيتين علىٰ جواز التوسل بذوات الأنبياء والصالِحين وحقهم وحرمتهم فهذا تفسير باطل وتَحريف للكلم عن مواضعه وصرف للفظ عن ظاهره الذي يدل عليه، وتَحميل للنص ما لا يَحتمل فضلاً عن إنه لم يقل به أحد من السلف ولا من المفسرين الذين يُعتد بقولهم، وإذا تبين أن الوسيلة هي العمل الصالح الذي يتقرب به إلى الله، فإن هذا العمل الصالح لابد أن يكون معلومًا من الشرع؛ لأن الله تعالى لَم يكل اختيار هذه الأعمال إلينا، ولَم يترك تَحديدها إلى عقولنا وأذواقنا، لأنها حينذاك ستختلف وتتباين، بل أمرنا سبحانه أن نرجع إليه في ذلك، ونتبع إرشاده وتعليمه فيه، لأنه لا يعلم ما يرضي الله ﷻ إلا الله وحده؛ فلهذا كان من الواجب علينا حتىٰ نعرف الوسائل المقربة إلى الله أن نرجع في كل مسألة إلى ما شرعه الله سبحانه، وبيَّن رسوله ﷺ، ويعني ذلك أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد قدمْنا أن العمل لا يكون صالِحًا حتىٰ يكون خالصًا لوجه الله موافقًا لشرع الله، وبناء علىٰ ذلك فإن التوسل قسمان:

١- توسل شرعي.

٢- توسل بدعي.

* * *

١- التوسل الشرعي:

بالرجوع إلى الكتاب والسنة نجد أن التوسل المشروع ينحصر في ثلاثة أنواع هي:

أولاً- التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

ثانيًا- التوسل إليه بالأعمال الصالحة.

ثالثًا- التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح.

وإليك هذه الأقسام مع أدلتها:

أولًا: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته:

كأن يقول المسلم في دعائه: «اللهم إنّي أسألك بأنك أنت الله الرحمن الرحيم العزيز الحكيم أن تعافيني». أو يقول: «اللهم إنّي أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي».

أو نَحو ذلك من دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، وقد دل علىٰ هذا النوع من التوسل الكتاب والسنة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٠].

ومن السنة قوله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر مسه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خير لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[(١)].

وقوله ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم»[(٢)].

---

(١) البخاري (ج١٠/ ١٢٧)، ومسلم (ج٤/ ٢٠٦٤).

(٢) البخاري (ج٣/ ٢٨) في التهجد، والدعوات (ج١١/ ١٨٣).

وقوله ﷺ: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[١].

وقوله في دعاء الكرب: «أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[٢].

ونَحو هذا كثير من الأدعية النبوية المأثورة.

ثانيًا: التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة:

وذلك في الأعمال الصالِحة التِي توافرت شروطها، وذلك كأن يقول الداعي: «اللهم بإيماني بك ومَحبتي لك واتباعي لرسولك أغفر لي». ونَحو ذلك من الأدعية المشروعة، ويدل لذلك من القرآن: قوله -تبارك وتعالى-: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٦].

وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

ومن السنة: حديث بريدة ﷺ حيث قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إنِّي أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لَم يلد ولَم يولد، ولَم يكن له كفوًا أحد. فقال: «قد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطىٰ، وإذا دُعي به أجاب»[٣].

ويشهد لذلك أيضًا: حديث عبد الله بن عمر ﷺ في قصة الثلاثة الذين

---

(١) رواه الترمذي (ج١٠/ ٢٦٧) بشرحه التحفة، والحاكم (ج١/ ٥٠٩)، وهو حديث حسن.

(٢) أحمد (ج١/ ٣٩١).

(٣) الترمذي الدعوات (ج٥/ ٥١٥)، وابن ماجه في الدعاء (ج٢/ ١٢٦٧).

دخلوا في غار، فانْحدرت صخرة، فَسَدَّت عليهم ذلك الغار، قال بعضهم لبعض: ادعوا الله بصالح أعمالكم، فتوسل أحدهم ببره بوالديه، وتوسل الثاني بعزوفه عن المعصية خوفًا من الله تعالى حينما ذكرته ابنة عمه بالله بعد أن قدر عليها فتركها خوفًا من الله، وتوسل الثالث بأمانته وصدقه حيث نَمَّىٰ أجر ذلك الرجل الذي تركه حتىٰ أصبح مالاً كثيرًا، وجاءه بعد حين فأخذه، ولَم يترك منه شيئًا[1].

هذا ملخص القصة، وهي تدل علىٰ مشروعية التوسل بالعمل الذي أخلص فيه المسلم لربه.

ثالثًا: التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح:

كأن يقع المسلم في ضيق شديد، أو تَحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله -تبارك وتعالى-، فيحب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوىٰ، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كربه ويزيل عنه همه.

وتدل لذلك السنة وعمل الصحابة: فمن السنة: ما رواه أنس ﷺ: أن أعرابيًّا دخل والنبي ﷺ يَخطب علىٰ المنبر، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وتقطعت السبل، فادع الله أن يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه يدعو حتىٰ رأيت بياض إبطه: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا». ورفع الناس أيديهم معه يدعون، يقول أنس ﷺ: فلا والله ما نرىٰ في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتىٰ ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لَم ينزل عن منبره حتىٰ رأيت المطر يتحادر علىٰ لحيته، ثم صلىٰ وخرجنا نَخوض الماء حتىٰ أتينا منازلنا.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥ج١٠/ ٤٠٤)، ومسلم في الذكر (ج٤/ ٢٠٩٩).

واستمر ذلك حتىٰ الجمعة الثانية، فجاء ذلك الأعرابي أو غيره، وقال: يا رسول ادع الله يُمسكها عنا، فتبسم النبي ﷺ ورفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، ....» إلى آخر الدعاء المعروف، فانفرجت السحب وصارت تُمطر حول المدينة، ولا يُمطر فيها شيء[(١)].

ومِنْ عمل الصحابة: ما رواه أنس ﷺ أيضًا، أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب ﷺ، فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»[(٢)].

ومعنىٰ قول عمر ﷺ :«إنا كنا نتوسل إليك بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا»: إننا كنا نقصد نبينا ونطلب منه أن يدعو لنا، ونتقرب إلى الله بدعائه، والآن قد انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلىٰ ولَم يعد من الممكن أن يدعو لنا فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس ﷺ، ونطلب منه أن يدعو لنا، وليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائهم: «اللهم بِجاه نبيك اسقنا، ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته ﷺ: اللهم بِجاه العباس اسقنا؛ لأن مثل هذا دعاء مبتدع ليس له أصل فِي الكتاب ولا فِي السنة، ولَم يفعله أحد من السلف الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين-.

وكذلك فعل معاوية ﷺ حيث استسقىٰ بيزيد بن الأسود[(٣)] -رحِمه الله تعالَىٰ-، وكان من أفاضل التابعين، فلو كان التوسل بالذات أو الجاه أو الحرمة مشروعًا لَما عدل عمر ومعاوية ﷺ عن الاستسقاء برسول الله ﷺ إلى الاستسقاء بالعباس ﷺ وبيزيد بن الأسود.

---

(١) البخاري في الاستسقاء (ج٢/ ٥٠١)، ومسلم في الاستسقاء (ج٢/ ٦١٢).

(٢) البخاري الاستسقاء (٣ج٢/ ٤٩٤)، وفضائل أصحاب النبي (١١ج٧/ ٧٧).

(٣) رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه (١٨/ ١٥١/ ٢) بسند صحيح، وعزاه الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج٣/ ٦٣٤) لأبي زرعة الدمشقي.

٢- التوسل البدعي:

عرفنا فيما سبق التوسل المشروع وأنواعه وأدلته ومن هنا نعلم أن ما عداه من التوسلات، كالتوسل بِحق فلان أو جاه فلان لا يعدو أن يكون توسلاً بدعيًا ولَم يدل عليه دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ولَم يعرف أحد من الصحابة ولا التابعين.

وكان ذلك كافيًا في بطلان هذه التوسلات الْمُحدثة، ولذا أنكره كثير من الأئمة الْمُحققين ولا يلتفت إلى قول من خالف في ذلك لأنه مصادم للنصوص الصريْحة الصحيحة من الكتاب والسنة الَّتِي تنهىٰ عن البدع والإحداث في الدين.

* * *

شبهات وردها في باب التوسل

القائلون بجواز التوسل بالذوات والجاه يستدلون بأدلة لا تَخرج عن أمرين؛ لأنها إما أن تكون نصوصًا صحيحة يَحرفونها عن معناها ويُحملونها ما لا تَحتمل، وإما أن تكون أحاديث ضعيفة أو موضوعة لا يعتمد عليها، وسنعرض بشيء من الاختصار إلى إلقاء الضوء على هذين الأمرين.

الأمر الأول: النصوص التي حَملوها ما لا تَحتمل: يستدل القائلون بَجواز التوسل بالذوات بِحديثين، زعموا أنهما يؤيدان ما ذهبوا إليه.

الحديث الأول: ما رواه البخاري -رحِمه الله تعالَى- عن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ﷺ فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»[1].

فيفهمون من هذا الحديث أن توسل عمر ﷺ إنَّما كان بِجاه العباس ﷺ ومكانته عند الله سبحانه، وأن توسله كان مُجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلبًا منه لله أن يسقيهم من أجله، وقد أقره الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يَدَّعون.

وهذا الاستدلال مردود من خمسة وجوه:

الأول: أنه لو كان التوسل بالذات أو الجاه مشروعًا لَما عدل عمر ﷺ عن التوسل برسول الله الذي هو أفضل الخلق إلى التوسل بالعباس ﷺ الذي هو دونه في الفضل

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (٣ج٢/ ٤٩٤).

أضعافًا مضاعفة، لكن عمر ﷺ لَم يفعل ذلك لعلمه بأن التوسل بدعاء رسول الله ﷺ إنَّما كان في حياته، حيث يدعو الله لَهم فيجيب الله دعاءه كما تقدم في قصة الأعرابي.

الثاني: أن الإنسان بطبعه حينما تكون له حاجة ملحة فإنه يبحث عن أعظم وسيلة توصله إلى المقصود فكيف يترك عمر ﷺ التوسل بالرسول بعد موته لو كان مشروعًا وهم في حال جدب وقحط حتىٰ لقد سُمي ذلك العام عام الرمادة.

الثالث: أن لفظ الحديث يدل علىٰ أن استسقاء عمر ﷺ بالعباس وقع أكثر من مرة بدليل قول أنس ﷺ: «كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب». فلو حصل أن عمر ﷺ عدل إلى المفضول مع وجود الفاضل كما يزعم المخالفون، فإن ذلك لو حصل مرة لَم يَحصل مرة أخرىٰ.

الرابع: أن المخالفين يتفقون معنا علىٰ أن هناك مضافًا مَحذوفًا في قول عمر ﷺ: «كنا نتوسل إليك بنبينا». وكذلك قوله: «نتوسل إليك بعم نبينا».

والمخالفون يقولون بَجاه نبينا، وبَجاه عم نبينا، ونَحن نقول بدعاء نبينا وبدعاء عم نبينا، والمرجع في تعيين المضاف المقدر هو السنة وسياق القصة، فإن عمر ﷺ والصحابة لَم يَجلسوا في بيوتهم وهم يقولون: نتوسل إليك بعم نبيك، وإنَّما خرجوا إلى المصلىٰ وأتوا بالعباس ﷺ وطلبوا منه أن يدعو لهم.

فتبين بذلك أن المقام مقام دعاء ولو كان المقام مقام توسل بالذات والجاه لكان الأجدر بهم أن يتوسلوا برسول الله ﷺ في بيوتهم لأن جاهه ومكانته لَم تتغير بانتقاله إلى الرفيق الأعلىٰ، لكن عمر ﷺ ومعه الصحابة ﷺ يعلمون أن رسول الله ﷺ قد أصبح في حال تَختلف عما كان عليه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلىٰ، فإنه لَما كان بين أظهرهم كانوا يأتون إليه ويطلبون منه الدعاء.

أما بعد وفاته ﷺ فإنه في حياة برزخية، لا يعلم كيفيتها إلا الله -تبارك وتعالى-،

وهي تَختلف اختلافًا كليًّا عن الحياة الدنيا وأحوالِها.

الخامس: أنه قد تكرر مثل هذا العمل من بعض الصحابة كاستسقاء معاوية ﷺ بيزيد بن الأسود -رحِمه الله تعالَىٰ- التابعي المشهور بالصلاح وكذلك فعل الضحاك بن قيس مع يزيد بن الأسود، كل ذلك يدل علىٰ أن الصحابة لَم يتوسلوا بالنبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلىٰ بل يبحثون عن رجل صالح حي قادر علىٰ الدعاء ويطلبون منه أن يدعو الله لهم.

ولو كان التوسل بالذات أو الجاه مشروعًا لكان الصحابة ﷺ أسبق الناس إليه؛ لِحرصهم علىٰ اتباع رسول الله ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ولو كان ذلك واردًا لنقلوه إلينا.

الحديث الثاني: حديث الضرير: ما رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن عثمان بن حُنيف: أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني: قال: «إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت فهو خير لك»، فقال: ادعه: فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك مُحمد نبي الرحمة، يا مُحمد إنِّي توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضىٰ لي، اللهم فشفعه فِيَّ وشفعني فيه» قال ففعل الرجل فبرأ[1].

والْمُجيزون للتوسل بالذوات يرون أن هذا الحديث دليل لهم علىٰ جواز التوسل بِجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالِحين، حيث توسل الأعمىٰ به فارتد بصيرًا، والواقع أن هذا الاستدلال غير صحيح، بل إن هذا هو النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع: وهو توسل بدعاء الرجل الصالح، ويُمكن أن يناقش استدلالُهم بالحديث بِما يأتي:

---

(١) أخرجه الترمذي (ج٤/ ٢٨١-٢٨٢)، وأحمد (ج٤/ ١٣٨)، وابن ماجه (ج١/ ٤١٨).

أولاً: أن الأعمىٰ إنَّما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له، وذلك لقوله: «ادع الله أن يعافيني». فهو قد توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ؛ لأنه يعلم أن دعاءه أرجىٰ للقبول عند الله بِخلاف دعاء غيره.

إذ لو كان التوسل بِجاهه أو بذاته لكان أولى بهذا الرجل أن يقعد في بيته ويتوسل، لكنه جاء إلى النبي ﷺ وطلب منه الدعاء.

ثانيًا: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك».

ثالثًا: إصرار الأعمىٰ علىٰ الدعاء، وهو قوله: «بل ادعه». فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له؛ لأنه ﷺ خير من وفَّىٰ بِما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق.

رابعًا: أن النبي ﷺ قد أرشده إلى الطريق الأفضل، وهو الجمع بين العمل الصالح والدعاء حيث أمره أن يتوضأ ويصلي ثم يدعو.

خامسًا: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: «اللهم فشفعه فِيَّ». وهذا يستحيل حمله علىٰ التوسل بذاته ﷺ أو جاهه، أو حقه، إذ إن المعنىٰ: «اللهم اقبل شفاعته فِيَّ». أي: اقبل دعاءه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة لغة: الدعاء.

سادسًا: إن مِما عَلَّم النبي ﷺ الأعمىٰ أن يقوله: «وشفعني فيه». أي: اقبل شفاعتي، أي دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ، أي: دعاءه في أن ترد علي بصري .... هذا الذي لا يمكن أن يُفهم من هذه الجملة سواه.

ولذا نرىٰ المخالفين يُعرضون عن هذه الجملة ولا يوردونها في كتبهم، لعلمهم أنها تنقض ما قالوا.

سابعًا: أن هذا الْحَديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب،

وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمىٰ أعاد الله عليه بصره.

ولذلك رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره، فهذا يدل علىٰ أن السر في شفاء الأعمىٰ إنَّما هو دعاء النبي ﷺ، ويؤيده أنه لو كان السر هو في دعاء الأعمىٰ وحده دون دعائه ﷺ، لكان كل من دعا به من العُميان مُخلصًا إليه تعالى منيبًا إليه قد عوفي، بل علىٰ الأقل لَعوفي واحد منهم، وهذا ما لَم يكن، ولعله لا يكون أبدًا.

وقد تبين لنا خلال هذه المناقشة لاستدلالهم بِحديث الضرير أن المقام من أوله إلى آخره مقام دعاء وعمل صالح يقوم به الداعي فضلاً عن كونه من معجزات النبوة كما أسلفنا.

الشبهة الثانية:

هي أحاديث ضعيفة أو موضوعة استدلوا بها على جواز التوسل بالذات، ويكفي في ردها أنها ضعيفة أو موضوعة، وسنذكر بعضًا منها مع الإشارة إلى علة ضعفها باختصار:

١- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «اللهم إني أسألك بِحق السائلين عليك»[(١)]. فإنه ضعيف؛ لأنه من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وعطية ضعيف كما قال النووي في الأذكار وابن تيمية في القاعدة الجليلة، والذهبي في الميزان، بل قال في الضعفاء (ج١ ص٨٨): مُجمع علىٰ ضعفه». كما ضعفه الهيثمي في غير موضع من مُجمع الزوائد.

(١) أحمد (ج٣/ ٢١)، وابن ماجه في المساجد (١٤ج١/ ٢٥٦)، وقال الهيثمي في مَجمع الزوائد (ج١٠/ ١١٧): رواه الطبراني وفيه فضالة بن جبير وهو ضعيف مُجمع علىٰ ضعفه.

٢- ما أخرج الحاكم عن عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا: «لَمَّا اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بِحق مُحمد لَمَا غفرت لي، فقال: يا آدم، وكيف عرفت مُحمدًا ولَم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فِيَّ من روحك رفعت رأسي، فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوبًا، لا إله إلا الله، مُحمدًا رسول الله، فعلمت أنك لَم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا مُحمد ما خلقتك»[(١)].

والحديث موضوع كما قال الذهبي، حيث تعقب الحاكم وقال: قلت: بل موضوع، وعبد الرحمن واهٍ، وعبد الله بن أسلم الفهري لا أدري من ذا.

كما أن فيه عبد الله بن مسلم بن رشيد، قال فيه الحافظ: ذكره ابن حبان متهم بوضع الحديث، يضع علىٰ الليث ومالك وابن لهيعة، لا يحل كتب حديثه»[(٢)].

٣- قولهم: «توسلوا بِجاهي فإن جاهي عند الله العظيم»[(٣)].

فإن هذا الحديث موضوع؛ بل ليس له أصل في شيء من كتب السنة، وإنما قد يوجد في بعض كتب المبتدعين والقبوريين، ولا شك أن جاهه عظيم بل إنه ﷺ أفضل الخلق أجمعين، كما قال ﷺ: «أن سيد ولد آدم ولا فخر»[(٤)]. ومع ذلك لَم يشرع لنا هذا النوع من التوسل مِما يدل علىٰ بطلانه.

وهناك أحاديث أخرىٰ موضوعة يوردونها لتأييد مذهبهم الباطل، لا نرىٰ ضرورة للإطالة فيها، وكلها تدور حول نفس المعنىٰ الذي ذكرته في الأحاديث الماضية، فتبين أنه لَم يثبت في باب التوسل بالذوات حديث واحد يُعتمد عليه.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (ج٢/ ٦١٥)، وضعفه الذهبي؛ بل قال: إنه موضوع.

(٢) لسان الميزان (ج٣/ ٣٦٠).

(٣) القاعدة الجليلة (ص١٣٠، ١٥٠)، والتوسل (ص١١٤).

(٤) سنن الترمذي المناقب (ج٥/ ٥٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٣٧ج٢/ ١٤٤٠)، وأحمد (ج١/ ٢٨٥).

الثامن: حكم زيارة القبور

اعلم أخي الدارس الكريم: أن زيارة القبور مشروعة لكن ليس علىٰ الوجه الذي يفعل الناس اليوم، وهي تَجوز للرجال دون النساء؛ لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة»[(١)].

والخطاب في قوله ﷺ: فزوروها. عام يشمل الرجال والنساء، لكنه مُخصص بِحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال: «لعن الله زوارات القبور من النساء»[(٢)]. فدل ذلك علىٰ أن زيارة الْمَقابر مستحبة في حق الرجال دون النساء، ويؤيد ذلك أيضًا ما جاء في نهي النساء عن اتباع الجنائز، وخلاصة القول: أن النساء لَم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لوجهين:

الأول: أن قوله ﷺ: فزوروها صيغة تذكير، وإنَّما يتناول النساء أيضًا علىٰ سبيل التغليب، وعلىٰ هذا؛ فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور، وما علمنا أحدًا من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ولا كان النساء علىٰ عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يَخرجن إلى زيارة القبور.

---

(١) الترمذي في الجنائز (ج٣/ ٣٦١).

(٢) الترمذي في الجنائز (ج٤/ ٦٢) بلفظ: «زوارات»، وابن ماجه في الجنائز (ج١/ ٥٠٢)، وأحمد (ج٢/ ٣٣٧، ٣٥٦).

الثاني: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك: «يذكر الموت ويرقق القلب وتدمع العين». هكذا في مسند أحمد[١]. ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة، لِما فيها من الضعف وقلة الصبر.

ومِما تقدم يتضح أن الغرض من زيارة القبور هو التذكر والاعتبار، والسلام على الميت، والدعاء له، وقد عَلَّمنا رسول الله ﷺ ما نقول عند زيارة القبور وهو «السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[٢]. ونَحو ذلك مما ورد.

أما ما يفعله الناس اليوم من الدعاء لأنفسهم عند المقابر أو التمسح بها أو التوجه إليها بطلب البركة أو جلب الخير أو دفع الضر، فإن هذا من الأعمال البدعية التي حذر منها رسول الله ﷺ، وقد تَجُرُّ صاحبها إلى الوقوع في الشرك لاسيما إن اعتقد في صاحب القبر أنه يسمعه ويُجيب دعاءه أو يعلم الغيب أو يكشف ما به من ضر.

هذا؛ ومِما ينبغي التنبيه عليه أنه وإن كانت زيارة القبور مستحبة للرجال على النحو الذي بينا إلا أنه لا تُشد إليها الرحال، بل يزور المسلم مقابر المسلمين في البلد الذي هو فيه دون سفر من أجل تلك الزيارة أو شد الرحال لَها؛ لأنه لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى.

كما دل على ذلك الحديث الصحيح وهو قول النبي ﷺ: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[٣].

وقد عظمت المصيبة في تعظيم المقابر ورفعها وبناء القباب عليها واتِّخاذها

---

(١) أخرجه أحمد (ج٣/ ٢٣،٢٥٠).

(٢) مسلم في الجنائز (ج٢/ ٦٦٩،٦٧١)، وأحمد (ج٦/ ٢٢١).

(٣) البخاري في الصلاة في مسجد مكة (ج٣/ ٦٣)، ومسلم في الحج (ج٢/ ٩٧٦).

مساجد مع كثرة الأحاديث الواردة في النهي عن ذلك، منها:

ما ثبت في الصحيحين عن عائشة ﵂: لَمَّا نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خَميصة له علىٰ وجهه فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(١)].

ولِمسلم، عن جندب بن عبد الله ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يَموت بِخمس: «ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[(٢)].

ولأحمد بسند جيد عن عبد الله بن مسعود ﵁ مرفوعًا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[(٣)].

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى-: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهىٰ عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأىٰ أحدهما مضادًّا للآخر مناقضًا له بِحيث لا يجتمعان أبدًا، فنهىٰ رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهىٰ عن اتِّخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد، ومضاهاة لبيوت الله، ونهىٰ عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف علىٰ إيقاد القناديل عليها، ونهىٰ عن أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويَجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر وأمر بتسويتها.

كما روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي حيث يقول: قال لي علي ﵁: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألاَّ تدع تِمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا

---

(١) البخاري في الأنبياء (ج٦/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (ج١/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٣) رواه أحمد (ج١/ ٤٣٥).

مشرفًا إلا سويته»[١].

وحديث ثمامة بن شُفي وهو عند مسلم أيضًا قال: كنا مع فضالة بنْ عبيد بأرض الروم برودس، فتوفِّي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فَسُوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٢].

وهؤلاء يبالغون في مُخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب، ونهىٰ عن تَجصيص القبر والبناء عليه كما روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن تَجصيص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه[٣]، ونهىٰ عن الكتابة عليها كما روىٰ أبو داود في سننه عن جابر ﷺ : «أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن تَجصيص القبور وأن يكتب عليها» قال الترمذي: حديث حسن صحيح[٤] وهؤلاء يتخذونَ عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره.

ونهىٰ أن يزاد عليها غير ترابها، كما روىٰ أبو داود عن جابر ﷺ أيضًا: أن رسول الله ﷺ: نهىٰ أن يُجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه[٥].

وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر علىٰ قبورهم.

* * *

(١) مسلم في الجنائز (٩٣ ج٢/ ٦٦٦)، وأبو داود في الجنائز (ج٣/ ٥٤٨)، والترمذي (ج٣/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (ج٣/ ٦٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (ج٢/ ٦٦٧).

(٤) جامع الترمذي في الجنائز (ج٣/ ٣٥٩).

(٥) سنن أبي داود الجنائز (ج٣/ ٥٥٣).

التاسع: حكم انتفاع الميت بسعي الحي

اتفق أهل السنة والجماعة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب فيه الميت في حياته، وذلك مثل الوقف والوصية وغير ذلك من الصدقات الجارية.

والأمر الثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج والصوم، على خلاف فيما يصل ثوابه من الصوم والحج.

ودليل الأمر الأول: ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به»[(١)].

ودليل انتفاع الميت بدعاء المسلمين الأحياء: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠].

ومن السنة: ما رواه أبو داود من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»[(٢)]. ويدل لذلك أيضًا ما قدمناه من الدعاء والسلام عند زيارة المقابر.

وأما وصول ثواب الصدقة: فدليله في الصحيحين من حديث عائشة ﷺ، أن

---

(١) مسلم في الوصية (ج٣/ ١٢٥٥)، وأبو داود (ج٣/ ٣٠٠)، والترمذي (ج٣/ ٦٥١).

(٢) أبو داود في الجنائز (ج٣/ ٥٥٠).

رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها ولَم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»[١].

وأما وصول ثواب الصوم: فدليله ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»[٢] ولا فرق علىٰ الصحيح بين صوم النذر وغيره من القضاء.

وأما وصول ثواب الحج: فدليله ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تَحج، فلم تَحج حتىٰ ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها، أرأيت لو كان علىٰ أمك دين، أكنت قاضيته؟» قالت: نعم، قال: «فاقضوا الذي له، فإن الله أحق بالوفاء»[٣].

والذي يظهر من هذا الحديث وما جاء في معناه: أن المشروع في الحج هو حج القريب عن قريبه، إذا مات ولَم يَحج، أو كان عاجزًا، بشرط أن يكون ذلك القريب قد حج عن نفسه، وأما التوسع في هذا الباب كالاستئجار علىٰ الحج فإنه وإن قال به بعض الفقهاء إلا أنه لَم يدل عليه دليل.

فينبغي الاقتصار علىٰ ما ورد به النص وهو حج القريب عن قريبه.

فقد اتضح مما تقدم إن ما يصل ثوابه من العبادات إلى الميت أربعة أمور: هي الدعاء والصدقة، والصوم، والحج، وقد عرفنا الأدلة علىٰ ذلك.

وأما ما عدا ذلك من العبادات كالصلاة وقراءة القرآن والذكر، فإنه ليس هناك أي نص يدل علىٰ وصول ثوابها إلى الميت وليس لدىٰ القائلين بجواز ذلك أي دليل

---

(١) البخاري في الجنائز (ج٣/ ٢٥٤)، والوصايا (ج٥/ ٣٨٨).

(٢) البخاري في الصوم (ج٤/ ١٩٢)، ومسلم (ج٢/ ٨٠٣).

(٣) البخاري في الاعتصام (ج١٣/ ٢٩٦).

يُعتمد عليه، اللهم إلا القياس، وهو: إلحاق المسكوت عنه من العبادات كالصلاة والقرآن بالمنصوص عليه كالصدقة والصوم، ومعلوم أن العبادات توقيفية لا يَجوز فيها القياس.

وقد أجمع العلماء خلفًا عن سلف علىٰ تَحريم الاستئجار علىٰ قراءة القرآن، فإنه لَم يقل به أحد من سلف الأمة ولَم يُرخص فيه أحد من الأئمة المعتبرين وإنَّما فعله بعض المتأخرين بقصد ابتزاز أموال الناس وأكلها بالباطل.

ولَم يقفوا عند هذا الحد؛ بل أقام القراء لهم مكاتب معينة كي يأتيهم الناس عندما يَموت الميت ويستأجرونه؛ بل ربما وصل الحال إلى حد المساومة في تَحديد الأجرة ثم يقيمون حفلات عند موت الميت ويُحيونها بالقرآن والولائم، وربما يتكرر ذلك بعد أسبوع من موت الميت أو بعد أربعين يومًا أو بعد سنة أو بعد كل حول من وفاته.

وهذه أعمال مُحدثة بدعية لا تفيد الميت بشيء، وما يؤخذ علىٰ ذلك من الأجرة فهو حرام ويكون أشد حرمة إذا كان من مال الورثة القصار؛ لأنه أكل لأموالهم بالباطل.

وخلاصة القول: أنه لَم تثبت النيابة عن الغير في الصلاة والقراءة كما أن الاستئجار علىٰ ذلك مُحرَّم بلا خلاف، سواء فِي ذلك والاستئجار علىٰ القراءة في بيت المتوفَّىٰ أم عند قبره أم في أي مكان آخر، فإن مثل هذه الأعمال فضلاً عن كونها بدعة، فإنها مُخالفة للسنة، حيث أمر النبي ﷺ جيران أهل الميت بإطعامهم.

كما قال حينما استشهد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد أتاهم ما يشغلهم»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (ج١/ ٢٠٥)، والترمذي (ج٣/ ٣١٤)، وابن ماجه (ج١/ ٥١٤).

والمسلمون اليوم يعكسون هذه السنة تَمامًا، فبدلاً من أن يطعموا أهل الميت نَجدهم يَجتمعون عندهم ويأكلون من طعامهم!!

والواجب على المسلمين: أن يبتعدوا عن هذه المظاهر الجاهلية ويتبعوا السنة المطهرة، فإن ذلك طريق فلاحهم وفوزهم في الدارين.

* * *

العاشر: النبوة والرسالة

ذكر العلماء -رحمهم الله تعالى- عدة أقوال في الفرق بين النبي والرسول، وبتأمل هذه الأقوال نَجد أن أحسنها وأولاها ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب النبوات: أن النَّبي: هو الذي ينبئه الله بأن يعمل بشريعة من قبله ولَم يرسل إلى كفار خالفوا أمر الله ليبلغهم رسالة من الله إليهم وقد يوحىٰ إليه وحي خاص في قصة معينة، فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بِمَا يفعلون، ويأمرون به المؤمنين بِهم.

والرسول هو: من ينبئه الله ثم يأمره بأن يبلغ رسالته من خالف أمره كنوح، فقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس[1].

فالرسول والنبي بشر من نفس الأمة، يَجري عليه ما يَجري علىٰ سائر البشر من الموت والحياة، ويَحتاج إلى ما يَحتاج إليه البشر من الطعام والشراب واللباس والنوم والراحة والنكاح، وما إلى ذلك مِما يَجري علىٰ البشر، وإنَّما ميزه الله -تبارك وتعالى- علىٰ البشر بالوحي وتبليغ الرسالة.

كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠].

وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

(١) انظر: النبوات (ص١٧٢، ١٧٣).

وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ [المائدة:٧٥].

ودعوة الرسل واحدة في جميع الأمم، ألا وهي: الدعوة إلى توحيد الله الخالص، وتَخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل:٣٦].

والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو تَجاوز الحد، ومعناه في الآية: «كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع».

وأول الرسل نوح -عليه الصلاة والسلام-، كما دل على ذلك حديث الشفاعة حيث جاء فيه: «أنت أول المرسلين إلى الأرض»[(١)].

وآخرهم وخاتَمهم وأفضلهم نبينا مُحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وكما قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وتُرك منه موضع لبنة، فطاف به النظار، يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة، لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة، خُتم بي البنيان، وخُتم بي الرسل»[(٢)].

والرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله، كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم (ج١/ ١٨٤).

(٢) مسلم في الفضائل (ج٤/ ١٧٩١)، وأحمد (٢/ ٢٥٧).

وقال تعالى مُخاطبًا نبينا مُحمدًا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن:٢١].

فمن ادعىٰ أن أحدًا من الأنبياء أو الأولياء يعلم الغيب من دون الله فقد افترىٰ علىٰ الله وجعل له ندًّا، وقوله مصادم لنصوص القرآن والسنة.

ولقد بالغ الناس في الغلو في الأنبياء حتىٰ لقد اعتقد كثير مِمن ينتسب إلى الإسلام أن جميع الكون قد خلق من نور مُحمد ﷺ، ويستشهدون علىٰ ذلك بالأحاديث الموضوعة الملفقة التي لا أصل لها في شيء من كتب السنة، ويزعمون أن حياته ﷺ في قبره كحياته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلىٰ.

فإنه لو كان كذلك لَما كان ثمة وجه مقبول لانصرافهم عن الصلاة وراءه ﷺ إلى الصلاة وراء غيره مِمن لا يدانيه أبدًا في منزلته وفضله.

نعم جاءت أحاديث صحيحة تدل علىٰ حياة الأنبياء كما نص القرآن علىٰ حياة الشهداء، ولكن هذه الحياة حياة برزخية لا يعلم كيفيتها إلا الله، ولا يَجوز أن تقاس علىٰ الحياة الدنيا.

من هذه الأحاديث: ما رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض،وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ» قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت؟ قال: «إن الله حرم علىٰ الأرض أجساد الأنبياء»[1].

فقد دل الحديث وما جاء في معناه علىٰ حياته ﷺ وحياة الأنبياء الآخرين، بيد

---

(١) أبو داود (ج٢/ ١٨٤)، والنسائي في الجمعة (ج٣/ ٧٥)، وابن ماجه (ج١/ ٣٤٥).

أن حياته ﷺ بعد وفاته مُخالفة لِحياته قبل الوفاة، ذلك أن الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري كنهها إلا الله ﷻ.

ولكن من الثابت والمعلوم أنها تَختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تَخضع لقوانينها، فالإنسان في الدنيا يأكل ويشرب، ويتنفس ويتزوج، ويتحرك ويتبرز، ويَمرض ويتكلم، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن أحدًا بعد الموت حتىٰ الأنبياء وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ تعرض له هذه الأمور بعد موته.

ومما يؤكد هذا: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يَختلفون في مسائل كثيرة بعد وفاته ﷺ ولَم يَخطر في بال أحد منهم الذهاب إليه في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها، لماذا؟

إن الأمر واضح جدًّا، وهو أنهم كلهم يعلمون أنه ﷺ انقطع عن الحياة الدنيا، ولَم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميسها، فرسول الله ﷺ بعد وفاته حي أكمل حياة يَحياهَا إنسان في البرزخ ولكنها حياة خاصة لا تشبه الحياة الدنيا.

وقد وصل الحال بكثير من المسلمين إلى مرحلة خطرة من الغلو في النبي ﷺ حتىٰ ظنوا أنه يَملك النفع والضر، وأنه يُجيب دعاء من دعاه، وأن كل شيء بيده، انظر مثلاً إلى قول القائل:

يـا أكـرم الْخَلـق مـا لـي مـن ألوذ به ... سـواك عـند نـزول الْحَـادث العمـمِ

وقال أيضًا:

وإن مـــن جـــودك الدنـــيا وضـــرتها ... ومـــن علـــومك علـــم اللـــوح والقلـــمِ

تُرىٰ ماذا ترك هذا الشاعر لله ﷻ حيث جعل رجاءه وملاذه عند نزول الشدائد برسول الله -عليه الصلاة والسلام- وسواء قصد بذلك يوم القيامة أم غيره من أوقات الضيق والشدة فإنه بهذا الدعاء قد نسي أن الله وحده هو الملجأ وهو الملاذ.

كما أنه في البيت الثاني قد اعتبر الدنيا والآخرة من جود الرسول -عليه الصلاة والسلام- ومن كرمه، كما أنه يدعي في هذا البيت أن ما أودعه الله وكتبه في اللوح الْمَحفوظ، وما جرىٰ به القلم كله مستمد من علوم الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وكان الأجدر به أن يأتي بعكس هذا القول حتىٰ يسلم مِما وقع فيه.

وما الفرق حينئذٍ بين من يدعي مثل هذه الدعوىٰ التي هي غاية في الغلو والإطراء، وبين قول اليهود «عزير ابن الله». وقول النصارىٰ «المسيح ابن الله». وقولهم: إنه ثالث ثلاثة.

وقد حذر الله تعالى من الغلو فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١].

كما حذرنا الرسول الله -عليه الصلاة والسلام- من الغلو فيه حيث قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»[1].

ومعنى لا تطروني: أي لا تبالغوا فِيَّ مدحي ولا تغلوا في كما غلا أهل الكتاب في أنبيائهم وكفاه فخرًا أنه عبد الله ورسوله، وأنه سيد ولد آدم، وأنه شافع مشفع، وأنه صاحب الحوض المورود والمقام الْمُحمود وغير ذلك مِما خصه الله -تبارك وتعالى- به -صلوات الله وسلامه عليه-.

وطريق مَحبته ليس في هذا الإطراء والمدح وإنَّما تتحقق مَحبته باتباع سنته والاهتداء بهديه والاقتداء به، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١].

---

(١) البخاري في الأنبياء (ج٦/ ٤٧٨)، وأحمد (ج١/ ٢٣).

الحادي عشر: المسائل الأربع التي يجب على كل مسلم أن يعلمها ويعمل بها

اعلم أخي الدارس الكريم: أنه يَجب علىٰ كل مسلم أن يتعلم أربع مسائل ويعمل بها، وهذه المسائل هي:

١- العلم.

٢- والعمل به.

٣- والدعوة إليه.

٤- والصبر علىٰ الأذىٰ فيه.

وقد جاء الحث علىٰ هذه المسائل الأربع في سورة العصر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

فقد أقسم الله تعالى بالعصر وهو: الدهر، ولله تعالى أن يُقسم بِما شاء من خلقه، بِخلاف المخلوق فلا يَجوز له أن يُقسم إلا بالله تعالى أو بصفة من صفاته، وجواب القسم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ و«أل». في الإنسان تفيد الاستغراق، أي: كل الناس خاسرون إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه مستثنىٰ من هذا الخسران.

وهذه الصفات هي: الإيْمَان، ولابد أن يُبنىٰ هذا الإيْمَان علىٰ العلم، وهذا العلم هو: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة رسوله -عليه الصلاة والسلام-،

ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، والعمل بمقتضىٰ هذا العلم قولاً وعملاً واعتقادًا.

قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]. وقد عقد الإمام البخاري -رحِمه الله تعالىٰ- بابًا ترجم له بقوله: باب العلم قبل القول والعمل[(١)].

وأشار إلى المسألة الثانية بقوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فالعلم بلا عمل كجسم بلا روح، إذ لا فائدة فيه بل هو حجة علىٰ صاحبه.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣].

والعمل لا يكون صالِحًا إلا إذا كان خالصًا لله موافقًا لشرع الله.

ثم أشار إلى المسألة الثالثة بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهي: الدعوة إلى العلم والعمل به بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

ثم أشار إلى المسألة الرابعة بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إذ إن الذي يدعو إلى الله لابد أن يصبر ويَحتسب فيما يلاقيه من الأذىٰ في سبيل تبليغ الدعوة إلى الله اقتداءً بالأنبياء والمرسلين حيث صبروا وصابروا حتىٰ بلغوا دعوة الله رغم ما نالَهم من الأذىٰ في ذلك.

إذن فهذه السورة سورة عظيمة بيَّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التطبيق العملي للإسلام علىٰ الوجه الذي يُرضي الله تعالى.

يقول الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: «لو ما أنزل الله علىٰ خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (ج١/ ١٥٩) مع شرحه فتح الباري.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٠٠).

الثاني عشر: الإسلام والإيمان والإحسان

الإسلام معناه: الاستسلام لله تعالَىٰ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك والبراءة من أهله.

كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وأركان الإسلام خمسة وهي:

١- شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله.

٢- وإقام الصلاة.

٣- وإيتاء الزكاة.

٤- وصوم رمضان.

٥- وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

١- ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله: أي: لا معبود بِحق إلا الله.

ومعنى شهادة أن مُحمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر به، وتصديقه فيما أخبر به، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلا بِما شرع.

٢- الإيمان: الإيمان لغة: التصديق، وشرعًا: إقرار باللسان، وتصديق بالجنان -وهو: القلب- وعمل بالجوارح، هذا هو التعريف الصحيح الذي تؤيده نصوص الكتاب

والسنة وعليه سلف الأمة.

كما دلت النصوص أيضًا في الكتاب والسنة على زيادة الإيْمان ونقصه، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإليك بعضًا من هذه الأدلة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤].

ومن السنة: قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(١)].

وكذلك قوله ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[(٢)].

فهذه أدلة صريْحة واضحة على زيادة الإيْمان ونقصه كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وإذن فلا عبرة بقول من زعم أن الإيْمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه معارض ومصادم لهذه النصوص.

وأما ما يستدل به البعض من الأحاديث على عدم زيادة الإيْمان ونقصه فإنه لا يصح منها شيئًا، ومنها على سبيل المثال: ما يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، الإيْمان يزيد وينقص؟ فقال: «لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر ونقصانه شرك». فإن الحديث موضوع كما نبه على ذلك الحافظ ابن كثير -رحِمه الله تعالَى- حيث قال بأن الإسناد من أبي الليث

---

(١) أبو داود في السنة (ج٥/ ٥٦)، والنسائي في الإيْمان (ج٦/ ٩٧).

(٢) البخاري (ج١٣/ ٣٩٣)، ومسلم (ج١/ ١٧٢).

إلى أبي مطيع مَجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة، وأبو مطيع هو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي. ضعفه أحمد ويَحيَىٰ بن معين وغيرهما، وأما أبو المهزم، فهو: يزيد بن سفيان، وهو ضعيف أيضًا، قال النسائي: هو متروك، واتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: «لو أعطوه فلسين لَحدثهم سبعين حديثًا»[1].

وأركان الإيمان ستة:

١- الإيْمَان بالله.

٢- وملائكته.

٣- وكتبه.

٤- ورسله.

٥- واليوم الآخر.

٦- والقدر خيره وشره.

٣- الإحسان: «وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك».

ومعنى ذلك: مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، مراقبة من يُحبه ويَخشاه، ويرجو ثوابه ويَخاف عقابه.

وقد جاء بيان الإسلام والإيْمَان والإحسان فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: بينما نَحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا مُحمد، أخبرني عن الإسلام.

---

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٣٨٥).

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيْمان.

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء» الشاء يتطاولون في البنيان.

قال: ثم انطلق فلبث مليًّا، ثم قال لي: «ياعمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»[1].

تَمت هذه المذكرة بِحمد الله.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله مُحمَّد وعلىٰ آله وأصحابه أجْمَعين.

صالح بن سعد السحيمي

---

(١) صحيح مسلم (ج١/ ٣٦).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
الأول: الحكمة من خلق الجن والإنس..... ٦
الثاني: شروط قبول العمل ٨
الثالث: التوحيد وأقسامه ١٢
١- توحيد الربوبية..... ١٣
٢- توحيد الألوهية والعبادة ١٥
٣- توحيد الأسماء والصفات ١٧
سبب ضلال من ضل في أسماء الله ﷻ وصفاته ٢٠
الرابع: الشرك وأقسامه ٢٢
الخامس: العبادة وأنواعها ٢٧
السادس: ما جاء في الرقى والتمائم ٣١
السابع: التوسل ٣٥
١- التوسل الشرعي: ٣٨
٢- التوسل البدعي:..... ٤٢
شبهات وردها في باب التوسل ٤٣
الشبهة الثانية : ٤٧

الثامن: حكم زيارة القبور ٤٩
التاسع: حكم انتفاع الميت بسعي الحي ٥٣
العاشر: النبوة والرسالة ٥٧
الحادي عشر: المسائل الأربع الَّتِي يجب علىٰ كل مسلم أن يعلمها ويعمل بها..... ٦٢
الثاني عشر: الإسلام والإيْمَان والإحسان ٦٤
فهرس الموضوعات ٦٩

* * *